إينيس

هاجر جعفر

جميع حقوق الطبع و النشر محفوظه

الطبعه الأولي يناير ٢٠١٩

الكتاب : إيزيس

الكاتب : هاجر جعفر

تدقيق لغوي : احمد محمد عبدالستار

تصميم الغلاف : عماد رشدي

رقم ايداع: 22273

ترقيم دولي: 978-977-6688-02-5

دار سنون للنشر والتوزيع

الزقازيق - الشرقية - مصر

٠١٠١١٤٦٤٠٣٧

sonon.pub@gmail.com

إينريس

هاجر جعفر

وكلما صادفتني مشكله وعائق في طريقي للحياه ،كان ندائي ونجدتي بك انت ، تشبه صرخه سيدنا يوسف قبل إلقاءه في الجب «لاوي ..لاوي..انقذني يا لاوي « ولكنك لم تفعل كما فعل لاوي بترك يوسف وحيداً في ظلمه الجب فقد كنت تنصت وتستجب دائماً لندائي يأخي وها أنا اليوم أحقق ذاتي واري أحد أحلامي يصبح حقيقه بفضل دعمك ومساندتك ورفضك الدائم لهزيمتي التي كدت استسلم لها الآلف المرات لولا وجودك معي

شكراً

» إسلام جعفر«

وبينما سلوى تفيض بما يمتلئ به قلبها لدكتورها النفسي كانت من بين كلمات أنينها:

أصبح جرحا يختبئ بجروحي، يتعمق بداخلي بتدفق مريب على الرغم من أن أعيني لم تره قرابة الثماني سنوات، أحببته حبا لا يمكن لقلم وصفه، أخلصت له بأنفاسي وروحي، أخلصت حتى كنت سأفقد عزيزا عليّ إن لم اكن قد فقدت بالفعل! سبحت نفسا نفسا حتى أغرقتني سفينة الأحلام الوردية ذات الشراع الكبير الذي يشبه الأجنحة التي تحتضني أنا وأمثالي، أظن أنه يخيل إليك أني أبالغ كثيرا ولكن ثمة حب لم يرُوى بعد يجعلك لا تشعر ولا ترى. . حب أعمى يا عزيزى.

*****

ترى عندما يتخلل المرض إلى أجسادنا ويصل إلى صميم الروح فتخرج الآهة من قلوبنا بكل ما تحمله من وجع وكسرة، أعلم أني أهذي كثيرا ولا أدرك ما أتفوه به الآن ولكني مدركة تماما أني كنت أثق بشخص صنع الكذب خصيصا على مجيئه لهذا العالم أو لحظة أنا التي كذبت على نفسها وجعلت روحها تثق به حتى وصلت إلى هنا. . يا لها من سذاجة!!

*****

قل لكياني وروحى تهدأ يا طبيب توجعني ذكرياتي كثيرا وأنا حقا عاجزة عن نسيانه لأن معه هو فقط قد أحببت الحياة، فالعشق الذكوري يختلف كثيرا عن العشق الأنثوي، فالنساء خلقن على علم تام أنه إذا أخلفت إحداهن نصيبها من صفوف العشاق ضاعت عليها حلاوة العشق في الحياة.

*****

رد الطبيب: مخطئة يا سلوى أنتم فقط أغلقتم الحياة على حب وحيد، لم تجدوا من يقول لكم أنه حتى نصل للحب الحقيقي والأبدي لابد من طريق طويل به صعاب وألم حتى نفوز بالحب الحقيقي في نهاية المطاف.

*****

أحببته ثمانية سنوات وبقيت على ذكراه للآن ثمانية أخريات وها أنا ذي أنحدر بذكراه إلى طريق لا نهاية له، وأنا معه كنت أقرأ عن الوجع والموجوعين ولكنه كان يؤكد لي أن حكايتنا لا تشبههم، أبيت أن أسمع أو أرى كل من كان يريد أن ينصحني لعنت كل من تهيأ له أني من الممكن أن أكون مع غيره، وأنا هنا الآن باقية على السفينة وحيدة أشيد أحلامنا بمفردي ولازلت أتصور للآن أنه آتٍ. .

*****

ولكني أعلم أن أعيني لم تكذب تلك المرة فقد رأيته معها، مع صديقة عمري، صديقة البكاء والضحك في فرح كبير تملؤه الأنوار والزينة كما تخيلته لنفسي تماما.
رواية -أنين القلب-.

*****

قرأت مريم هذه السطور ونامت باكية تتساءل لماذا خلق الحب بما فيه من كل هذا الوجع لأصحابه؟!
وتساقطت دموع قليلة تأثرا بالرواية وندمت كثيرا لأنها اشترتها.

*****

مع انتشار الفيس بوك أحد أشهر مواقع التواصل الاجتماعي وهي تكون شبكة اجتماعية تجمع ما بين الخريجين والطلبة والمثقفين وكافة فئات المجتمع بشكل عام. . كانت مريم مع ظهور الفيس بوك في الصف الثالث الثانوي التجاري وكما هو معروف عن حال الطلاب بالمدارس التجارية ومثيلتها الصنايع وما تحمله هذه المدارس من قدر عالٍ من الجهل في عقول طلابها ولكن مريم كانت من بين الكثير من الفتيات التي تقف الظروف عائقا أمامهم فقد توفي أبوها منذ سنتين وتركها هي وأختها ووالدتها، ثلاثة وحيدات لم يكن لهم ظهر غيره، ولم تقدر والدة مريم على مصاريف الثانوي العام فدخلت مريم الثانوي التجاري حتى تساند والدتها ولكنها بقت على تواصل مع زميلاتها اللواتي دخلن الثانوي العام عن طريق الفيس بوك.

*****

مريم ابنة جميلة لأم قليلة الحيلة رحل زوجها وترك لها بنتين في زمنٍ إنجاب الإناث فيه ليس بأمر هين على الإطلاق، ولكن مريم كان تعرف أن الله سبحانه وتعالى حين خلقنا لهذه الحياة ويُقطع الحبل السري لنا بين الأم وطفلها وتطلق أول صرخة ألم لنا توزع معها الأرزاق ويأخذ كل منا نصيبه من السعادة ومن الألم ومن الحزن لذالك استودعت مريم طموحها عند الله وسلمت أمرها لله.

*****

يأتي الصباح وشمسه كل يوم لنا بإطلالته الذهبية وشمس ممتلئة بالأمل والحياة، استيقظت مريم مع يومٍ جديد وكما تفعل كل يوم تفيق وتركل الكسل لتذهب للعمل، وفعلت كما علمتها عمتها وقامت بحركة تلو الأخرى للوضوء واستعدادا للصلاة وللقاء الله، تعلمت مريم الصلاة منذ سنتين لم تكن تعرف وقتها شيئا عن الصلاة والدعاء، ذهبت إلى عمتها في يوم ما هي وأمها وأختها وكانت عمتها لديها رحمة في نفس سن مريم ولكنها كانت في الثانوي العام، وعلى الرغم من تفرقة المدارس بينهما إلا أنهما مازالتا تحملان نفس الحب لبعضهما.

*****

وفي هذه الليلة ألحت مريم على والدتها أن تتركها تنام مع رحمة وخاصة أن والد رحمة كان لديه سهر ليلا في العمل ولن يوجد أي إحراج لبياتها معهم وأبت أمها في بادئ الأمر لأنها تقلق كثيرا إذا غابت إحداهن عنها ولكنه هو قلب الأم الذي يفوق حنانه كل الوصف ولانت لاستعطاف مريم لها، الأسرة التي تكون الأم هي اليد الحاكمة بها يحصل الأبناء على حظٍ أوفر من تحقيق أمانيهم ورغباتهم، فحنان الأم يقف مكتف الأيدي أمام نظرة عيون الأبناء.

أما عن هذه الليلة فقضت مريم وعمتها ورحمة ليلة مليئة بالضحكات والتسلية والحديث الممتع حين سكن القمر وتوهج نوره وذهب الناس للنوم وذهبوا هم أيضا للنوم.

شعرت مريم بقلق في هذه الليلة حيث إنه ليس للجميع منا الأمان الكافي في بيوتنا ولكن عند خروجنا منها نشعر بالضياع.

وباتت مريم متأملة في ضوء المصباح المخترق لشباك غرفة رحمة شريدة تبحث عن الأمان المختبئ في أحضان والدتها، وتمنت لو أن الظروف قد تحطمت وكانت الآن بالثانوي العام مع رحمة، وفجأة سمعت أذان الفجر فقامت لتدخل الحمام وبينما وهي في ممر بين الغرفتين غرفة رحمة وغرفة عمتها سمعت صوت بكاء من عمتها وكأنها تناجي شخصا ما فنهضت مسرعة خوفا على عمتها وحين اقتربت من باب الغرفة وقفت مندهشة مع من تتحدث عمتها ببكاءٍ وهي تعلم أن زوج عمتها ليس هنا، فطرقت الباب وسألت عمتها إن كان بها شئ! فنادت إليها عمتها وأجلستها بجانبها وقالت لها إنها بخير وإنها فقدت تماسكها أمام الله لسوء الأحوال وصمتت وقالت مريم لها: تكلمين الله؟ وهل يسمعكِ؟

اندهشت عمتها من أسئلة مريم وسألتها إن كانت تصلي، فقالت لها مريم إنها لا تعرف كيف تصلي فطمأنتها عمتها وأخذتها وعلمتها حركات الوضوء الصحيحة كاملة وقالت لها إن الصلاة هي الحبل الرابط بين العبد وربه وإنها باب مفتوح بيننا وبين الله. . .

ومن ليلتها لم تنسَ مريم فرضا ولا تترك لقاء لها مع الله.

وذهبت مريم بعد الصلاة للعمل بمعرض المفروشات فكانت تعمل عند رجلٍ تخطى الأربعين من عمره ويرى دائما بمريم ابنة جميلة لم ينجب مثلها فقد رحلت زوجته بعد معاناة مع مرض السرطان.

تركته ولم يكن يتوقع فراقها على الإطلاق فقد توفيت وهو ينام جمبها متخيلا أنها نامت كثيرا فقط فنحن البشر حين ينتهي بنا العمر نتعلق ببعض مثل الأطفال وبقي الرجل بجانبها وهي جثة ميتة.

يومين يفيق بجانبها ويحاول أن يفيقها ولا تستجيب فيبكي ويحضنها وينام حتى انتشرت رائحة جسدها وشعر الناس بها وفتح الجيران عليهم باب الشقة ووجدوه نائما بجانبها يبكي وكاد هو الآخر أن يفارق الحياة لأنه بقي قرابة اليومين بدون أكل ولا شرب وتم نقله للمستشفى وعاش بعدها ولكنه محطم لفراقها ولايتذوق شيئا بعد فراق زوجته.

*****

أما عن مريم فواجهت وحشية العمل بمفردها. . وموقف وراء الآخر جعل مريم تزيل أجنحة الملائكة التي خلقت بها هذه.

نبقى أبرياء حتى نُجرح ونُهزم ثم نتجرد من هذه البراءة انتقاما للجرح الذي غرس بنا ولم يكن التجرد من البراءة وارتداء ثوب الوحشية بأمر هين على الإطلاق.

وفي هذا اليوم اتصلت بها رحمة قائلة لها: غرفة مغطاة الجدران، وسرير منصوب على أعلاه حامل، وشخص ضخم يا مريم ينادون عليه يا دكتور، وأبي يتوسل لأمي بألا تفعل، وأنا لا أفهم مايدور حولي، هل قالت لكِ أمي شيء يا مريم؟!

الإلقاء بمريم في عالم لا يشبهها جعلها تدرك ما الذي يدور عند بيت عمتها وفهمت على الفور أن عمتها أخذت القرار بشأن ختان مريم. ثم تجمد جسدها وتملكته البرودة وخافت كثيرا على رحمة لأن زميلاتها كانوا يحكون لها عن معاناتهم مع هذه العملية.

وطلبت مريم الإذن من المدير وذهبت إلى رحمة وعند دخولها البيت رأت ظهر الطبيب في الغرفة قبل غلقها رأته في هذه اللحظة وحشا خلق لنزع الأمان لا لتطيب الجروح أما عن زوج عمتها فقد كان جالسا على باب الغرفة رجلا صلبا يشعر بالضعف أمام قرار زوجته، خنقته عباءة العادات والتقاليد جعلته ينساق لأفعال لم يفهم لها سببا إلى الآن.

وأغمضت مريم عينيها قائلة: يا ليتنا لم نكن إناثا!!!

وها هو سلم جديد يولد بقلب رحمة التي انساقت لهذه الغرفة دون أن تعرف ما معنى أن تختن أو ما السبب وراء هذه العملية. . .

فنحن الإناث لا حول لنا ولا قوة حين نتعرف على الخيانة ونراها في عالمنا لم يكن لذنبٍ نقترفه ولكن لكونك أنثى عليكِ أن تنالي حظا مضاعفا من الخيانة، تنتزع براءتنا من هنا من خيبة تعقبها خيبة اقوى وأكثر وجعا.
المشكلة لا تكمن في التغلب على الخيانة وكم الخيبات التي نمر بها، المشكلة في شرخ القلب الذي لم يره أحد غيرنا.
اعتبرت رحمة والدتها خائنة لها منذ هذه الليلة وحقا الخيانة لا تشفع لها مبررات العالم بأكمله لدى شخص حساس مثل رحمة.
وفُتح باب الغرفة وخرج الطبيب وخرجت عمتها وجاء الجيران مهنئينها على هذه الجريمة ومريم تراهم في دهشة مريبة وحين فتح باب الغرفة لمتسعه وبدت غرفة رحمة من بعيد كغرفة لعجوز تنتظر الموت، ورحمة تختبئ في لفة بيضاء وجفونها زرقاء كلون البحر، دخلت مريم إليها واحتضنتها وكادت دقات قلب رحمة تخرق قلب مريم من الخوف والرهبة التي بها.
وعادت مريم لوالدتها وأول ما فعلته حين فتحت باب الشقة أن انهارت من البكاء وكانت والدتها تعرف ولكنها لم ترد أن تحكي لها حتى إذا جاء دورها لا تخلف، وقالت لها والدتها إن ما يحدث هو لمصلحة رحمة فصرخت مريم في والدتها لأول مرة قائلة: توجعونا مهرا لسنين وحياة لا نثق إن كنا سنعيشها أم لا!!
ودخلت باب غرفتها وتعمدت أمها أن تتركها بمفردها حتى تهدأ ونامت مريم من البكاء.

*****

نامت مريم وبداخلها ثورة ولكن ربما ثار العالم بأكمله معها، ومنذ سنواتٍ طوال لم نرَ مثل ماحدث اليوم يوم الثلاثاء ٢٥ يناير، وقامت المظاهرات في عدة مدن مصرية في وقت واحد خاصة في العاصمة القاهرة وتحركت المظاهرات من عدة أماكن لتلتقي في مكان واحد بوسط القاهرة.

وأفاقت مريم على حركة غريبة في الشارع والبيت ووالدتها تجلس أمام التلفاز ساخطة على الوضع وعلى قلة الأمان التي جلبها لهم هؤلاء الشباب من وجهة نظرها الذين تجمعوا عبر مواقع التواصل الاجتماعية على الإنترنت تأثرا بالثورة التونسية وغضب الآلاف من المحتجين ضد الفقر والجهل والبطالة ويطالبون برحيل الحكومة، ولهذه اللحظة لا تفهم مريم ما الذي يحدث وتسمع إلى أمها في ذهول ثم نهضت وتركت أمها في سخطها هذا على الشباب وما فعلوه.

وتوضأت مريم متنهدة إلى الله لما تشعر به من ألمٍ في صدرها، وشعرت وكأنها تستنشق هواء المرضى على الرغم من أنها لم تكن مريضة، وفتحت الفيس بوك حتى تفهم ما الذي يحدث فسألت إحدى صديقاتها على الفيس بوك ما الذي يحدث؟

وكانت صديقة مريم من إحدى البنات القليلات اللواتي شاركن في الدعوة لثورة ٢٥ يناير فحكت لمريم عن النار التي أشعلت قلوب الشباب ومن هو خالد سعيد وما حدث له حيث إن انتماء خالد سعيد للطبقة الوسطى التي كانت أكثر معاناة من تلك الانتكاهات أدى إلى تعاطف قطاعات من الجماهير الواسعة وأنهم رأوا بخالد سعيد مثالا عما يمكن أن يصيبهم ويصيب أبنائهم.

موجة واسعة بعرض البحر تتأرجح بغريقٍ لايستطيع أن يعود لوعيه مجددا من كثرة الماء حوله والذي جعله تائها في عرض البحر هذا هو شعور مريم بعد كل مرة تسمع فيها من رفاقها عما يحدث في شوارع القاهرة.

وخرجت مريم من غرفتها على صيحة من والدتها ووجدت عمتها تبكي، زوجها منذ ليلة لم يعد للبيت ولا يعرفون أي خبرٍ عنه وأخذت عمتها تردد باكية: يا ليتني لم أفعل بنا هذا! حتما أنا السبب. . !

تكرار أخطاء نشأنا عليها كالختان وغيره يجعلنا من دون أن نشعر نخلق جيلا مشبعا بالعقد والهموم، فهذه الأخطاء تجعلنا نفقد أناسا لن تسير الحياة بنا بدونهم والختان كارثة لابد أن نصل إلى حلٍ لها وإلى شعارٍ ثابت بها.

نسير وراء العادات والتقاليد؟!

أم نسير وراء الدين والسنة؟!

أم نؤمن بمدى الأذى النفسي الناتج وراءها؟!

وهدأت مريم من روع عمتها وقالت لها بأن الوضع ليس مستقرا في البلاد هذه الأيام وأنه لهذا السبب لم يعد وربما في عمل ما.

وكانت مريم تذهب للمعرض بعد إلحاح شديد على والدتها لأنها منعتها من النزول بسبب استمرار غليان الشارع المصري.

وبالفعل رأت مريم ما لم تره طيلة عمرها الماضي، الثورة وقيامها كان نضوجا مفرحا للشعب ومع ازدياد الطموح والحلم بحياة ديمقراطية أساسها العدل، ارتفع معدل طغيان رجال الشرطة وجرائمهم القاسية، ظن رجال الشرطة أنهم القوا الحاكمة على الأرض.

وفي أحد الأيام لعودة مريم من المعرض بعد العصر، قامت إحدى المظاهرات السلمية للتنديد بظلم الحكم، وقامت مدرعات الأمن ورجال الشرطة بإطلاق الغازات المسيلة للدموع كنوع من أنواع التهديد للكف عن التظاهر وامتلأت مريم رعبا فأخذت تجري متخفية بين الجدران بعيدا عن أعين الشرطة وهي تجري رأت فتاة تشد بغلظة شديدة من حجابها ورجال الشرطة يضربونها بالعصيان الحديدية على جسدها حتى شرخ قلب مريم وجعا من أنين الفتاة وصيحاتها لنجدتها وسُحبت الفتاة لداخل المدرعة وأخذت مريم تجري سريعا حتى وصلت لبيت عمتها فدخلت إليه لأنه كان أقرب لها من بيتها فذهبت إليه للاحتماء من قسوة رجال الشرطة وعلى الرغم من أن مريم لم تكن تريد أن تدخل هذا البيت مرة أخرى إلا أنها كانت مضطرة للاحتماء به من غليان الشارع المصري وحروبه.

واتصلت مريم بوالدتها لتطمئنها وقالت لها إن الوضع الأمنى لا يسمح لها بالنزول، ورحمة التي تغيرت كليا بعد ما حدث لها من عملية حكمت عليها بالبؤس والحزن أن يلزموها لآخر العمر وقد أصبح الفيس بوك هو محور حياتها، وبينما مريم جالسة مع رحمة وتقص لها ما رأته اليوم ومدى خوفها الشديد كانت تقابلها رحمة بابتسامة بلهاء مليئة بالبرودة وقالت لمريم: إن النظام كاد يتخلص من الشعب بدلا من أن يتخلص منه الشعب وأنا وأنتِ والجميع عليه المشاركة في هذه الثورة. . !

وقع هذا الكلام على أُذن مريم برنة صادمة، لم يخطر لها على الإطلاق أن تكون عنصرا من هذه الثورة خاصة أن مريم من هذه الفئة الصامتة التي يحمل كل عضو من أجسادهم صراعا مختلفا عن الآخر، الفئة التي عانت معها الأبحاث النفسية بأن يهونون على أنفسهم وأن يرحموا أرواحهم من جلد الذات هذا!

إن الحياة لم تعد تعني لدى رحمة شيئا لم يكن أمرا سهلا ولكنه حصل بين غمضة عين من خيانة مرت بها يعقبها فقدان أب حنون تعيش على حرقة قلب من التفكير به وأين هو؟؟

انضمت رحمة لرؤساء ثورة ٢٥ يناير وكانت تذهب كل يوم لتشارك من الصباح حتى يحل الليل تعود إلى البيت تكمل ثورتها في البيت على الإنترنت، ولم تستطع والدتها إيقافها وانشغلت هي الأخرى بالبحث عن زوجها عند الأقارب والمعارف.

وأعلن الجيش بيانه الأول ردا على حركة الثوار الأكثر جدا وأعلن عن استمرار اجتماعات المجلس الأعلى للقوات المسلحة لحماية البلاد، وخرج مبارك مؤكدا أنه مستمر في السلطة بينما طلب نائبه عمر سليمان عبر بيان له من المتظاهرين العودة لمنازلهم.

وعجزت مريم عن الذهاب للمعرض أو حتى العودة لمنزلها وبقت عند عمتها، وفي ليلة تأخرت رحمة عن موعد رجوعها ككل يوم واشتعل قلب والدتها من الخوف والقلق عليها وأخذت تبكي وتندب حظها على ابنتها وزوجها فالأنثى أضعف ماخُلق وهي عاجزة تماما عن وصف نبض من نبضات نيران الوجع إذا شعرت به!

وفجأة طرق الباب ووجدوا رحمة أمامهم بملابسها تكاد متمزقة تماما ولم تشعر والدتها حتى أخذتها في أحضانها باكية على حالها وجلست رحمة تبكي من شدة الخوف واسرعت مريم وغطتها ببطانية واحتضنتها وبكت هي الأخرى واشتدت عليهم حرقة وأنين القلب وانتهت ليلتهم ببكاء شديد.

*****

ومرت الليالي وخمدت الثورة وبدأت الدولة والمنظمات بالفعل في تلبية مطالب الشعب.

وداومت مريم على العمل مرة أخرى بعد أن أدت فترة طويلة من الامتحانات، وحاجتهم لدخلٍ آخر غير معاش والدها جعلها تعجل بالنزول للعمل مع آخر يوم من امتحاناتها، وجاءت إليها إحدى زميلات العمل ونقلت إليها طلب أحد زملائها يبلغ من العمر الأربعين بأنه يرى في مريم زوجة تعينه على مشقة الحياة ويريد أن يتقدم لخطبتها رسميا ويريد أن يحدد فترة لهذا الزواج ومن ثم ينتهي حفاظا على زوجته وأولاده، كانت مريم تنصت في سخرية إلى صديقتها وبعد توقف صديقتها عن الكلام قالت لها مريم: أي حياة يريدني أن أعينه عليها، حياة تخالف القران والسنة، حياة فقط من أجل المتعة لفترة ما!

ولم تجد رد فعل آخر تجاوب به على صديقتها سوى أن انسحبت من جانبها في صمت تام.

حتى مرت الأيام ويبدو أن نصيب مريم من السعادة يقترب منها، ودق هاتفها وأخبرتها رفيقتها بنجاحهم معا بمجموع عالٍ، وأنه بإمكانهم الوصول للكلية الحلم الذي طال انتظاره سنواتٍ وفرحت والدتها كثيرا، شعرت أن الله خلق من أذرعها التي لا حول لها ولا قوة أجنحة تطير الآن لتحقيق كل ما تمناه القلب وحالت الظروف أمامه.

*****

وعلى الضفة المقابلة هناك عند جنوب سيناء، عرف عبد الرحمن أنه قد تم ترشيحه لكلية الإعلام جامعة القاهرة ولكنه كان من هؤلاء الصامتين الذين يحملون الكثير بداخلهم لذلك لم يبدِ أي فرح أو حزن عند سماع الخبر، فقد اعتاد أنه لا شيء يفرح قلبه الحزين.

فقد كان ينام ويستيقظ على مشهد رحيل أمه، لا ينساها ولايُمحى صراخها من أذنه فقد ماتت والدته في شجار قاسٍ مع والده في لحظة تملك الغضب من والده حتى ماتت ضربا بين يديه وسقطت على الأرض مع آهات مؤلمة، ولم ينسَ صراخه بينهم توسلا لأبيه بأن يرحم ضعف والدته، وقسوة الجيران الذين فضلوا الابتعاد عن مشهد شجارهم بحجة الخوف من التدخل بين رجل وزوجته.

*****

قاسٍ، قاسٍ جدا مجتمعنا فيطبق القيم ومفهوم الخصوصية بطريقة خاطئة، فقد رفضوا مساعدة عبد الرحمن ونجدته هو ووالدته من رجل لم يرَ سوى الانتقام لغضبه حتى خبت روح هذه المسكينة والدته! ومن ليلتها لم يرَ عبد الرحمن والده سوى عدوٍ حرمه من والدته، فالأم جنة الله على الأرض.

*****

ولكن استعد عبد الرحمن للجامعة بمفهوم مختلف عن كل زملائه في نفس سنه فقد كان استعداده هروبا من هذا المنزل الذي ماتت به والدته.
واستعد ليرحل من هذه المدينة التي تضيق به الأنفاس بها والتي كل ركن بها يذكره بوالدته حتى إنه قرر الرحيل قبل بداية الدراسة بشهر كامل وذلك بعد دخوله في تشاجر مع خالته عندما كانت تعاقب ابنتها على كذبها وغيابها عن الدرس فتدخل عبد الرحمن وأهان خالته أمام ابنتها وقال لها: ألم تتعلمي من أبي حين عاقب أمي! ولم يخلقكِ الله أما لتضربي وتهيني بل خلقكِ لتحتوي وتحني على أبنائك.
وأخذ بنت خالته الصغيرة واحتضنها وحكى لها عن المستقبل وعنائه وأنه يجب عليها أن تسمع كلام والدتها وتذهب للدروسها باستمرار، من يرى عبد الرحمن من بعيد يراه شخصا منفصم الشخصية.
ولم ينسَ عبد الرحمن جدته قبل رحيله للقاهرة فهي أم والدته وكان دائما ما يرى والدته بها، كان معتادا على الذهاب إليها ورعايتها من كافة شيء، فقام بمساعدتها في الاستحمام وتمشيط شعراتها القليلة وأطعمها وقبل ذهابه بكى لفراقها.
وذهب ولم يودع والده، وركب القطار وما إن تحركت عجلات القطار تذكر والدته التي لم ينسَها وظهر وجهها له على نافذة القطار وتذكر بكاءها من شقاء الأيام وصعوبة الحياة مع والده وتذكر تحذيرها له من الأيام وشقائها وأنها أوصته أن يحارب بؤس الأيام وأنه وباء يحتاج للمحاربة القوية.

*****

أما عن والده فقد عاقبته الحياة بما يكفي لما فعله، فقد عاد في أحد الأيام من عمله مبكرا على غير العادة بصحبة مجموعة من أصدقاء العمل وإنه لم يعد للمنزل منذ يومين ومع كل هذا لم يبالِ عبد الرحمن ويستمر في قلة رؤيته له، فبعد خروج والده من السجن وقضاء مدة العقوبة لما فعله مع والدته، كره بين الناس وأصبحت نظراتهم سهاما قاسية إليه وعلى الرغم من أن الله قد بدل حاله إلى حالٍ آخر بعد فترة العقوبة والسجن لم ترحمه الحياة ولم يغفر له أحد.

وفي عودته هذه من العمل بصحبة زملائه فقد كان يعمل كعادته بهمة عالية غير مبالٍ لأحد وأيضا تحاشيا لنظراتهم القاسية، اخترقت عينيه مادة من المواد التي تتطاير من الحديد عند لحمه ولم يستطع أن يتفاداها حتى صرخ صراخا عاليا فأسرع إليه الجميع وتم نقله للمستشفى وهناك أخبره الطبيب أنه قد فقد عينه وتم حجزه ليلتين وحيدا لا يجد من يسأل عنه!

*****

شعر والده بأسى لم يشعر به منذ أن جاء إلى الحياة بعد أن أغلق زملاؤه عليه باب غرفته في المنزل وتركه ابنه وحيدا ورحل للقاهرة، بكى الصخر، بكى الرجل القوي، الرجل الذي كان يملك قوة أدت إلى قتل زوجته، وتمنى لو أن شُلت يداه التي أذهبت بحياة رفيقة عمره وأخذ يتهمس وحده بأصابعه الأماكن ويتخبط هنا وهناك جائعا لا يجد من يساعده.

*****

ويبدو أنه قد لان أحد الجيران لحالته، ودق باب المنزل وتحسس الرجل طريقه حتى وصل للباب وفتح لأحد جيرانه فدخل الجار وقام بمساعدته لتبديل ملابسه وأطعمه، فسأله عن عبد الرحمن في خجل شديد فأجاب عليه جاره بأنه قد ذهب للقاهرة للالتحاق بالكلية، فهو لا يعرف شيئا عن ابنه!

*****

وسكنت العواصف في حياة مريم واستدار كل شخص لأحزانه ووجع قلبه، وذهبت للجامعة وعوضها الله بسعادة عن كل لحظة صعبة مرت بها، وفتح قلبها ذراعيه باسما للحياة وللدراسة وأخذت بروحها الطفولية الحنونة تتعرف على زملائها من مختلف الطبقات ولم تتأثر بالعالم الجديد فقد كانت لديها حكمة وقناعة لا يملكها الكثير منا في عالم أصبحت المظاهر العامل الأول للعيش فيه.

*****

أما رحمة أصبحت اليوم فتاة عاجزة عن العيش لا تفعل شيئا سوى أنها تقف في بلكونة البيت تشاهد الحياة في مسالمة تامة لا تتكلم ولا تبكي ولا تصرخ ولا تبتسم ولا تفعل شيئا على الإطلاق خاصة بعد الأخبار الأخيرة التي جاءتهم عن والدها وأنه وجُد في إحدى المصحات النفسية. . .
وعرفوا أن أباها بقى ما يقرب من ثلاث ليالٍ على باب المستشفى لا ينطق سوى: يا ليتها لم تفعل، غرسوا بقلبك الألم وأنا لم أفعل شيئا يا رحمة.
وأنه في أول جلسة له مع الطبيب كان يهمهم بكلامٍ لم يفهمه أحد ولكن مع مرور الأيام فهموا ماحدث مع ابنته أدى إلى إيصاله لهذه الحالة.

*****

وفي يوم من أحد أيام مريم في الجامعة طلبت منها إحدى صديقاتها أن تنضم معهم في النشاط الطلابي وعزمتها رفيقتها لتحضر معهم ندوة شعرية لتغير من روتين الدراسة والعمل معا، وبالفعل ذهبت مريم لحضور الندوة وكانت بدايتها مع شابٍ رأته مريم بشوش الوجه كثيرا، ذو قامة طويلة ولحية قصيرة وتم تقديمه باسم عبد الرحمن فؤاد!

وكان لصعوده طلة مختلفة كثيرا حيث التفتت له الأنظار كأنهم كانوا يعرفونه من قبل، وبعد انتهاء فقرته استأذنت أمل من رفيقتها قائلة إنها لابد أن تعود إلى المنزل حتى لا تقلق عليها والدتها، وعادت إلى المنزل وأكلت من الطعام التي قامت والدتها بتحضيره بنفسها، والدتها التي تملأ عليهم البيت طمأنينة وسلاما، ووجدت مريم أمل أختها نائمة لأنها ستذهب للمدرسة غدا مبكرا، ودق هاتف مريم وكانت صديقتها تسألها ماذا سيفعلون فيما طلبه دكتور المادة منهم؟
ولم تفهم مريم صديقتها في البداية وقالت لها إنها لم ترَ المنشور الذي أنزله الدكتور على الفيس بوك وأغلقت معها حتى تفتح بريدها وتتفقد المنشور جيدا.
فطلب الدكتور منهم أن يقدم كل طالب منهم موضوعا مختلفا عن الآخر وفكرة لمواجهة مشكلة من مشاكل الشباب التي تواجههم وطرح حلول للمشكلة المقدمة، أراد الدكتور أن يجعل من مشروعاتهم ذكرى لمجهود عظيم منهم، ووعد الطلاب الذين سيقدمون أفضل مشاريعٍ بالفوز بالدرجات تساعدهم كثيرا في زيادة تقديرهم.

وليلتها كان عبد الرحمن يشاهد فيلما يعرض معاناة الأنثى مع سرطان الثدى، وبطلة الفيلم كانت ذات سبعة وعشرين عاما وأنه قد تم بتر نهدها لإصابتها بسرطان به، ورأى عبد الرحمن والدته في معاناة البطلة فأغلق الفيلم باكيا على وحدته منذ فراقها

فحب عبد الرحمن الشديد لوالدته يتحول لأذى فكري تدريجيا لديه فوصل به الحال أنه يتساءل بينه وبين نفسه لماذا تُخلق الأنثى طالما ستموت وجعا مقابل الوجود على قيد هذه الحياة!

وكان ينزل إجازات لجنوب سيناء كل فترة واخرى ولا يرق قلبه أبدا لأبيه على الرغم من أنه أصبح كفيفا لا حول له ولا قوة، ووالده كل يوم يتمنى لو أن زوجته لم تمت أكثر من الآخر، فقد ضاقت به الحياة بدونها وخنقته عقدة الذنب وكل يوم تبرهن له الحياة أنه لن يشفع لرجل مسكين مثله سوى زوجة حنونة تؤنس وحدته، حينما نتخطى الثلاثين والأربعين نتعلم حبا جديدا بلا كلمة أحبك، حبا يفوق كل الكلام والأغانى، حب معانيه أسمى بكثير من احتفال أو هدية يمكننا أن نختصره في خيط لين بدايته وفاء وآخره بقاء.

وشغل عبد الرحمن نفسه طيلة الإجازة في البحث عن فكرة جديدة ليطرحها في المشروع الذي طلبه منهم الدكتور، ووصل إلى فكرة وذهب للجامعة ليطرحها على الدكتور ووجد مجموعة من زميلاته جاءوا هم أيضا ليطرحوا فكرتهم وكانت مريم ورفيقتها من بينهم بعنوان: -حاجة تغم: طفلة بقت أم!-.

*****

أرادوا ان تكون فكرتهم بأسلوب عامي حتى تصل لأغلب الناس، وقامت هي وصديقتها باستخدام الفوتوشوب لتدعيم فكرتهم فرسموا شكلا توضيحيا لطفلة لم تتجاوز السابعة عشر من عمرها ترتدي فستانا وطرحة زفاف تقف أمام مرآة مطبوع عليها وجه الطفلة ولكنها ترتدي شيئا مختلفا، ترتدي ثوبا أسود اللون وتحمل طفلا رضيعا بين يديها.
أرادت مريم ورفاقها لفت أنظار العالم حول الزواج المبكر وقتل الطفولة المبكرة وأرادوا أن يبينوا كم ثقل مفهوم الأنثى على مجتمعنا هذا.

*****

وقدمت مجموعة أخرى فكرة بعنوان: -العِرض ليس للعرض-.
وكانت هذه فكرة بنت من المجموعة تزوجت بعد انتهاء الثانوية العامة لها وتطلقت بعد أول سنة من زواجها، بدأت حياتها قبل كل زملائها وانتهت في غمضة عين.

*****

وجاء دور عبد الرحمن وجاء بفكرة مختلفة تماما عن الجميع وبدأ عرض فكرته بصورة مستخدما خيوط بسيطة ورسم بها بابًا مغلقا خلفه مسمارين على أحدهم فتاة ترتدى الأبيض وعلى رأسها تاج وتتساقط دموع من أعينها وعلى المسمار الآخر عجوز يرفع شعارا مكتوب عليه: -بنتكم هتبقى على مشنقة في بيته لو انتو بفلوسه اتعميتوا-.

وظن الجميع عند روية الرسمة أنه يريد أن يناقش جانبا آخر من معاناة الأنثى ولكنه فاجأ الجميع عندما بدأ كلامه عن فكرته قائلا إنه علينا إعادة وأد الإناث ورحمة الأنثى من الآلام التي تقابلها في المجتمع.
وكان الدكتور يعرف عبد الرحمن من قبل وتفهم جيدا دوافعه لمثل هذه الفكرة ولم يعرضه للإحراج بين زملائه واكتفى بالصمت بعد كلام عبد الرحمن وأعطى للطلاب مهلة أسبوعين للإعلان عن الفائز وترك لهم الاختيار وأنهم هم من بينهم سيختارون الفائز من خلال التصويت.

*****

ومع رحيل الطلاب طلب الدكتور من عبد الرحمن أن يبقى قليلا وبين له أنه سلك الطريق الخاطئ ليعبر عن فكرته وأن هناك الآلاف من الحلول لحماية وتكريم الأنثى دون وأدهن.
وقال له إن الأناث هن وردات الحياة وإن عبيرهن هو الهواء الذي نستنشقه لنعيش، وإن الأنثى هي نصف المجتمع إن لم تكن المجتمع بأكمله، وإن لولا وجود الأنثى لم ينُنجب رجلا مثله يدرك قيمة الأنثى بهذا الشكل، وبالفعل اقتنع عبد الرحمن وخرج من مكتب الدكتور لديه طاقة هائلة ليغير مسار فكرته.

*****

عناد مريم مع الحياة جعلها تفوز كل يوم يعقبها وراء كل خيبة نصرا في مكان جديد، وكانت الحياة أشد عنادا معها وكان هذا يتطلب منها قوة ألف رجل معا وفي ليلتها عادت مريم ووجدت والدتها تجلس على السرير ولا تستطيع التحرك وأخبرتها أختها أنها وقعت وهي تتوضأ اليوم ووضعوا مسكنا للألم لكن الألم لم يزُل بعد، فأصرت مريم على والدتها أن تأخذها للطبيب وعندما ذهبوا إليه قال الطبيب إنها يجب أن تبقى في المستشفى لأنها تحتاج لعملية جراحية!

وحدد دكتور الجامعة موعدا ليجتمع فيه الطلاب للتصويت على أكثر المشاريع تميزا بينهم، ولكن مريم لم تستطع ترك والدتها في هذه الظروف وإنها غدا ستخضع للعملية، وبالفعل اجتمع الدكتور وقام بطرح الأفكار في ترتيب عادل لهم وترك لهم التصويت من خلال ورقة صغيرة يضعون بها اسم المشروع وسبب انحياز كل منهم له، وعندما جاءت لحظة الإعلان عن الفائز كان الجميع في توتر وانتظار وأعلن الدكتور اسم الطالبة الفائزة وكانت مريم. . ولكنها لم تجب فسأل الدكتور عن سبب غيابها فأجابته صديقتها بأن والدتها مريضة في المستشفى وأنها لم تستطع تركها بمفردها وأنها تقدم اعتذارها له.

وجاءت كلمة والدتها مريضة في قلب عبد الرحمن وخفق قلبه بشدة، وجاءت أنفاس والدته حوله في المكان فاقترح على الجميع أن يذهبوا لزيارة مريم ووالدتها، وكان دكتور المادة يمتلك طيبة قلب وشعور بالآخرين نادرة نفتقدها كثيرا اليوم، فوافق عبد الرحمن الرأى وبالفعل ذهبوا جميعا إلى المستشفى.

ودخولهم على مريم غرفة المستشفى هي ووالدتها كان بمثابة عطر يبخُ في وجهها فأصابها بانتعاشٍ جميل، وحين أخبروها بتفوقها ابتسمت بسمة عارمة ولكنها كانت في حيرة تسير وراء السعادة وتصدقها أم تنتظر نجاة والدتها من هذه العملية، وكان زملاء مريم كلهم حولها يتحدثون عن فكرتها الرائعة، وعبد الرحمن الولد الغريب جلس بجانب والدتها على الرغم من أنه لم يعرفها على الإطلاق، جلس يحادثها عن أمل الله في شفائها وأنها لابد أن تكون قوية وأنه ينتظرها بالشفاء العاجل، ومسك أيديها وأخذ يقرأ لها مما حفظه من القرآن الكريم لعل الله يزيل عنها الآلام التي تشعر بها، كانت والدة مريم مندهشة في البداية لكنها لم تطل اندهاشها فدخل عبد الرحمن إلى قلبها سريعا حتى إنها أخذت تشكو له حال مريم وأنها لا تأكل ولا تهتم بصحتها وإنها خائفة عليها كثيرا وقالت له إنها تشم رائحة مسكٍ طيلة الوقت وإنها تشعر أن الأيام الباقية لها على قيد الحياة قصيرة للغاية.

*****

على الرغم من كل هذا لم تجمع الصدفة بين عبد الرحمن ومريم للحديث وجها لوجه بعد! وكانت مريم بين زملائها ولكنها كانت تنظر إليه من بعيد تتعجب لجلسته هو ووالدتها وعندما ذهبوا جميعا سألت مريم عن سر جلستهما معا فقالت لها والدتها إنها هي الأخرى كانت مندهشة ولكن عندما تحدثت إليه علمت منه أن والدته متوفية وأنه ربما شعر بها حنان والدته.

وفي اليوم التالي طلبت المستشفى من مريم سداد بعض من القيم المالية حتى يستطيعون القيام بالعملية فقامت مريم بدفع آخر مبلغ مالي تمتلكه هي وأسرتها.

*****

وقررت مريم أن تذهب لتشكر الدكتور على زيارتها لها ولوالدتها وعندما ذهبت إليه وجدت عبد الرحمن معه جاء ليتحدث مع الدكتور أنه كان مخطئا كثيرا في فكرة عودة وأد البنات هذه.

*****

ومع دخول مريم ردوا السلام عليها في ترحاب وبسمة طيبة، وأخذوا يتحدثون سويا وقالت مريم لعبد الرحمن أنها تعلم مدى انهزام الأنثى في مجتمعنا، وأنها لاحول لها ولا قوة تتعدد أمام عينيها وسائل لإهانتها وتعذيبها ومع ذلك تقف عاجزة، ملجمة اللسان.

*****

وخرجت مريم وعبد الرحمن معا من مكتب الدكتور، وانتهزت مريم سيرهم الصامت وشكرت عبد الرحمن على كلماته الجميلة مع والدتها وقالت إن والدتها قد أحبته كثيرا، وعبد الرحمن يخترق إلى قلبه شعور بأمان غريب عليه لم يعتده من زمن طويل، وطلب عبد الرحمن من مريم بأن يزور والدتها مرة أخرى وكان عبد الرحمن لم يعرف أن هذه الزيارة لمساعدة مريم ووالدتها أم لمساعدته هو ليستنشق الطمأنينة بينهم.

*****

وعادت مريم إلى والدتها وهي سعيدة للقائها مع عبد الرحمن ويبدو أن الحب قد دق بابها ونامت ليلتها وتمتلك شعورا بالتمني أ يكون شعورها حقيقي، واعتادت والدة مريم أن مريم هي التي تفيق قبلها وتحضر لها الطعام وتحممها ولكنها في هذا الصباح أطالت في النوم كثيرا فظنت والدتها أنها مجهدة فتركتها تنام وترتاح.

*****

حتى جاءت الممرضة لتساعد والدة مريم وتعطيها الدواء فطلبت منها والدتها أن توقظ مريم حتى تأكل شيئا، ولم تفق مريم في البداية من نداء الممرضة حتى اقتربت منها وأخذت تحركها يسارا ويمينل فأدركت الممرضة أنها غيبوبة وليس نوما طويلا، فخرجت من الغرفة ركضا دون

التحدث بشئ إلى والدة مريم فقامت والدة مريم تصرخ باكية على ابنتها ولم تتحمل الوقوف على قدميها فسقطت على الأرض من الألم، فجاءت الممرضة وأعطت مريم حقنة أنسولين وأخبرتها أنها غيبوبة سكر، وبقت الأم طيلة اليوم حزينة على ابنتها وما أصابها.

*****

وفي نهاية اليوم تشاجرت رئيسة القسم مع الممرضة، ووجهت الطبيبة رئيسة القسم بتوجيه كلامٍ قاسٍ إلى الممرضة لم فعلته مع مريم وأنها كان عليها أن تنتظر قدومها دون أن تتصرف من نفسها وتأخذ حقنة أنسولين بهذا المبلغ دون استئذان ودون دفع نقود، ولم تتذكر هذه الطبيبة أن هذه الممرضة تستحق الشكر على واجبها المهني هذا.

*****

فيتمنى كل أب مع دخول ابنه كلية الطب أن يكون أبناؤهم جزءا من تخفيف آلام الناس ولم ينتبهوا أن كلية الطب تميت بداخلهم الرحمة وتحولهم لقلوبٍ متحجرة مع مرور السبع سنوات ولاينظرون إلا إلى المال والمنصب ويرفضون الاعتراف بالدور الكبير للممرض والممرضة في حياتهم المهنية.

وكان شجار الممرضة ورئيسة القسم في قدوم عبد الرحمن لزيارة مريم ووالدتها، ورأى مريم تقف في آخر الردهة تبكي بقلب ضعيف لما حدث للمرضة بسببها، فاقترب عبد الرحمن منها وسألها بقلبٍ مرتجف عن سبب بكائها فحكت له ماحدث معها وأن الممرض ستعاقب بسببها، ورؤية أنثى تبكي بضعف بمثابة حرب لعبد الرحمن عليه الخوض بها لمن يفعل ذلك فترك مريم ودخل غرفة رئيسة القسم، وصرخ في وجهها قائلا: أنت من رزقكِ الله لتداوي ألم البشر؟! تصرخين وتهينين هذه الممرضة بأى حقٍ يا ذات القلب المتحجر! ألم تهتزي ألما لبكاء هذه الإنسانة! لم تفعل شيئا سوى موقف إنساني، تفعلين هذا وأنتِ أنثى مثلها و تشعرين جيدا بالألم التي تشعر به الآن!

*****

وترك الغرفة وخرج مع مريم وجلس يطمئنها هي ووالدتها وأنه سيبقى بجانبهم، وبالفعل وفى عبد الرحمن معهم بكلامه وظل ما يقرب من الأسبوعين يستمر في زيارتهم ويتابع تفاصيل عملية والدتها، وكانت هذه الفترة صعبة كثيرا على مريم ووالدتها وأنهم كانوا أشد إفلاسا ولا يوجد من يساعدهم.
ولكن قرب عبد الرحمن منهم هون عليهم الكثير وغمرت قلوبهم بالدفء لقربه.

*****

وجاء عبد الرحمن في يوم وعرض على مريم فرصة للعمل بمصنع تم افتتاحه جديد وأنه بحاجة للعمالة، وكانت مريم أشد احتياجا للعمل لتكملة فلوس العملية، فلم تتردد على الإطلاق، وساندها السند الذي أرسله الله إليها بهذه الفترة: بد الرحمن وأخبرها بأنه سيذهب للعمل معها على الرغم من أنه مكتفٍ بمعاش والدته لكنه أراد أن يهون عليها صعوبة الأمر.

حب عبد الرحمن لمريم ألان قلب عبد الرحمن على والده وأصبح يتصل به من فترة لأخرى ليطمئن عليه.

وغمر الحب قلوبهم وشعروا أن الحياة تعوضهم عن أيامٍ صعبة مروا بها وأصبحوا يتمنوا كل صباحٍ أمنية جديدة لحياتهم معا، وعملهم معا قطع عليهم مسافاتٍ طويلة وجعلهم أكثر قربا لبعض.

وبعد أيامٍ طويلة من العمل استطاعت مريم تدبير مبلغ كبير ساعدها كثيرا في عملية والدتها، وفي صباحٍ أفاقت مريم على كابوسٍ قاسٍ.

فقد رأت شجرتين كبيرتين شابت عظامهم وترهلت أوراقهم وبين أرجل الشجرتين فتاة نحيفة محني ظهرها من الآلام، ترتدي ثوبا أبيضا طويلا يخالطه اللون الأسود ومسحوبة بعنف شديد من ذراعيها ومعلقة بأربطة غليظة في طرفي الشجرتين ورأت أنها وسط جدار من الطوب الأحمر يشبه الجبين المتحجر، وفي لحظة انهار عليها الجدار وهي عاجزة عن المقاومة وجاء رجلا من خلفها غير واضح المعالم ممسكا عصا غليظة وأخذ يحطم ظهرها وهي تصرخ وسط كل هذه المعاناة حتى اختفى صوتها مع اختفائها تحت هذا الطوب المهدوم.

*****

والتقت هي وعبد الرحمن في صباح اليوم التالي وحكت له عن هذا الكابوس، فطلب منها أن يأخذوا اليوم إجازة من العمل وأخذها ليجلسوا على النيل بين أحضان البحر، وجاءها اتصال من أختها أمل أخبرتها أن والدتها فارقت الحياة. . . .

*****

فانزعجت مريم ظنا منها أن والدتها ذهبت إلى مكان ما وهي مريضة لأن أختها قالت لها: إن ماما ذهبت يا مريم. . !
ولحظة تفسير أمل لها بأنها فارقت الحياة انهارت مريم من البكاء ولم تشعر بنفسها إلا بالمستشفى ولحظة دخولها على والدتها ورؤيتها لها مغطاة بسترة بيضاء وقعت على الأرض مغمى عليها.

*****

أما عبد الرحمن فقد وقع الخبر عليه بصدمة جديدة بعد وفاة والدته وبألم آخر جديد له، وكانت ردة فعله مختلفة تجاه مريم فشعر أنه السبب في موت والدة مريم وأنه لولا أنه ساعد مريم في الحصول على عمل، لكانت لم تترك والدتها وبقت بجانبها تساعدها، وكره نفسه ورأى في نفسه مثالا آخر لأبيه فهو قتل والدته وهو قتل والدة مريم، وهذا هو السلاح القاتل لمن يملك ضميرا وفيا، وظل قرابة اليومين لا يأكل ولا يرى أحدا وخرج في

ليلة وذهب عند البحر وبكى بكاء شديدا وألقى بنفسه في البحر ولم يجد من ينجده فقذفت به الأمواج صباحا على الشاطئ ميتا ومريم في غيبوبة هي الأخرى. . . . .

*****

وأصبحت مريم في عالم آخر بمفردها ترى به ما لم يراه غيرها.

*****

ومع أول صرخة للمولود الجديد، اهتزت معه أرجاء البيت فرحا عندما صاحت الداية التي عندما رآها الجد لم يتفاءل بها على الإطلاق لأنها طلت عليه برداء أسود ووشاح لايليق بها أبدا، فقد كان يرى الجد ان دورها لا ختلف كثيرا عن الطبيبات، ولكن عندما خرجت من الغرفة تصيح قائلة: ابنة ياجد، لقد جاءتكم ابنة!

*****

انتفض الجد فرحا واحتضن ابنه وكأن الجد لم يرَ أطفالا من قبل وصاح قائلًا: إيزيس، سنسميها إيزيس، متممة الثلاث رجال لا يليق لها سوى إيزيس.

*****

فالجد لديه ثلاث أولاد عمر والد إيزيس، وعلي، وعاصم، ولكنه طيلة حياته كان يتمنى أن يرزقه الله بفتاة وقد طال به الوقت ليومه هذا حتى رزق بها وأصبح جدا لأول مرة فالله سبحانه وتعالى لايرفض أماني عباده ولايرد كفا يرفع إليه خائبا ولكنه يؤخرها فقط لحكمة عز وجل.

*****

فالجد سعيد شيخ عجوز لديه لحية سمراء ممزوجة بالشعر الأبيض، ودائما ما يرتدي وشاحا أبيض على رأسه، لا يطل على جيرانه ومعارفه إلا وتصاحبه ابتسامة رضا ويقين بالله، يبلغ من العمر ثمانية وستين عاما، كان صيادا كبيرا فالجد من أوائل الناس الذين جاءوا إلى البحر وسكنوا بجانبه فقد جاء هو وزوجته منذ ثلاثين عاما قبل أن ترحل منذ ثلاثة أعوام، كانوا قديما يعيشون بمساكن المحافظة وتم تعيين محافظ جيد وقرر تجديد هذه المساكن بهدمها وإعادة بنائها من جديد، وقتها كانت زوجته تشعر بأشد الإحباط لأنهم لم يكن لديهم مأوى آخر سوى هذه الشقة الفقيرة، فلم تعرف إلى أين يذهبون بالثلاثة أبناء.

*****

ولكن الجد كان يقينه بالله عز وجل كبيرا وظل يبحث طيلة الليل والنهار عن مأوى لهم ويطبطب على قلب زوجته ويقول لها عبارته العجيبة: كوني مريم.

*****

قصة السيدة مريم عليها السلام والمسيح كانت أعظم العبر التي يتحلى بها الجد طيلة حياته، فقد كان يُذكر نفسه دائما بما مرت به السيدة مريم حين رزقها الله بالمسيح عيسى ولم يمسسها بشر وما رأته من قومها من كلام وعبارات عنيفة لكنها صبرت لحكم الله ومن يكن مع الله ويخيب! فقد جعل الله عيسى آية للناس ليروا عجائب قدرته التي لاحدود لها.

*****

ومن هنا يرى الجد سعيد أن نساء العالم جميعا وجب عليهم -أن يكن مريم- فالسيدة مريم لم يخطر على عقلها للحظة أن تتحسر أنها خلقت امرأة وحدث لها هذا على الرغم من اختبارها الشاق.

*****

وعلى الرغم من قوة الجد هذه فإنه اهتز وجعا وألما بعد وفاة زوجته، فالرجال جميعا يستمدون قوتهم من وجود نسائهم معهم وهذه الحقيقة التي لا يعلمها أغلب النساء.

*****

حتى جاءت إليه إيزيس ولم يعتبر الجد إيزيس حفيدة له منذ ولادتها بل كان دائما يراها الابنة التي تمناها من زمن طويل وأراد لها اسم إيزيس لأنه قرأ قديما عن الملكة إيزيس وأنها من أعظم النساء والملكات التي قد أنجبتهم أحشاء مصر الفرعونية، عزيمتها مثل بطل شجاع لا يقبل الهزيمة، ووفائها لزوجها ورعايتها لابنهما بعد وفاته يُضرب بها المثل ليومنا هذا، فقد كانت زوجة أوزوريس واستعادت جثة زوجها بعد أن قتلها ست أخوه، قديما كانت وجود جثة المتوفى عقدا مقدسا عن أهله وأن التفريط بها ضياع كبير لتاريخهم.

*****

واعتبر القدماء المصريين الملكة إيزيس بعد تصميمها وعزمها على استعادة جثة زوجها -ربة القمر والأمومة- لديهم ورمزوا لها بامرأة على جبين القمر وأصبح عامة الشعب مغرمين بالتأمل في ذلك الرمز. . واختفت الملكة إيزيس في مستنقعات الدلتا حتى ربت ابنها حورس وشب واشتد ساعده وأصبح قادرا على الانتقام لأبيه.

*****

العذراء وصبرها على قضاء الله لها وقوة الملكة إيزيس التي جعلتها أشهر الربات المصرية جعل الفنانين يستوحون بعد انتشار المسيحية مشهد الملكة إيزيس وحورس ابنها في تصوير السيدة العذراء وهي تحتضن يسوع.

*****

وكانت الحفيدة الجميلة أميرة جدها وجاءت إليه بكل الخير والرزق، وإن مرضت يلازمها الجد حتى تُشفى، وإن أصبحت سليمة يجالسها يرتب لها ألعابها ويعلمها كيف تعامل صغارها من الألعاب، وبنى لها من روحه سورا كبيرا يحميها، وعندما تعود إليه مهزومة من صديقاتها في لعبة ما يذكرها أن المرأة الضعيفة لا وجود لها في عالمنا هذا ويعيد عليها أن الله لم يجعلها إلا مريم في صبرها وإيزيس في قوتها لذا عليها أن تعود وتصبر وتتحمل وتحاول حتى تفوز بين رفاقها.

*****

وعاشت إيزيس في عالم الجد الجميل، المسالم، الذي يخلو من الوجع والألم، وكانت إيزيس كلما خرجت من صومعة الجد للعالم الخارجي تصدم بمساوئه فتعود سريعا مثل طائر تائه عن عشه وتضم جدها ليمحو لها ما رأته، ولكن الجد كان خائفا عليها كثيرا بعد رحيله وكان يفكر دائما كيف ستواجه العالم من بعده.

وأبناء الجد كانوا كل يوم يمر يزيدون في إلحاحهم لينتقلوا إلى المدينة ليسكنوا بها ولكن الجد كان يأبى فالمكان صديق وفي لأصحابه فكيف يترك الجد صديقه، وبيت البحر هذا عاش الجد به فوق العشرين عاما وأصبح هيجان وسكون البحر نسيم الجد فقد رافقه البحر في رحلته الطويلة وكان يسمع إليه دائما ولا يمل منه، ولم يستطع الجد أن يرحل ويترك ذكرياته في هذا البيت مع زوجته.

*****

وفي الفترة الأخيرة كان الجد يذهب إلى الشاطئ كثيرا ويعود متأخرا، وكانت إيزيس ترافقه في يوم إجازتها، وذات يوم كان الجو أشد برودة ومع ذلك خرج الجد وإيزيس كعادتهم واستمتعوا كثيرا حتى امتلأ البحر بصوت ضحكاتهم معا وطلبت من جدها أن يدعو لها كثيرا لأنها لديها اختبار صعب في المدرسة يوم الثلاثاء وأنها خائفة للغاية.

فقال لها الجد: إن المعافرة والكفاح قانون على البشر، ومن يخشى على قلبه ولا يريد الأنين والحزن لروحه فليختر طريق الله ويدعها تسرى إلهيا، لذا أيتها الحفيدة الأميرة اسعي وانجحي ولا تيأسي حتى يعلو اسمك يوما ما بين نساء العالم، وإن إيزيس حبيبة ورفيقة جدها ينتظرها العالم وينتظرها رجل عظيم لتشاركه رحلته في الحياة وإنه سيجعلها جوهرة له تنير حياته- وقبل جبينها واحتضنها.

ولم يسلم الجد في هذا اليوم من برودة الجو وعاد إلى البيت متعب جدا وسقط على الأرض وحاولوا أن يفيقوه بكل الطرق لكن بدا لهم الأمر صعبا فانتقل إلى المستشفى في المدينة وجلست إيزيس بجانبه لا تعلم ماذا يجب عليها أن تفعل لتخفف من ألم جدها، فلم يجعلها تتألم لحظة منذ أن ولدت وعلى الرغم من تحذير الأطباء الشديد وعدم سماحهم بزيارة للجد، لم تسمع إيزيس لكلامهم كانت تسلل له ليلا من ورائهم وتجلس بجانبه على أرضية الغرفة تقرأ له ما حفظها إياه من آيات القرآن، وتتحدث إليه بصوت خافت تطلب منه أن يعود إليها وكلما همت بالبكاء عليه تذكرته يقول لها: كوني مريم. .

*****

وبعد أسبوعين تحسنت حالته وإذا بالطبيب يسمح له بالخروج بعد إلحاح شديد من الجد عليه وأوصى الطبيب أبناءه بضرورة الراحة التامة له وكانت إيزيس طائرة من الفرحة لعودة الجد معهم وكانت تنهي المدرسة ودروسها وتجري سريعا على غرفة الجد تجلس في حضنه وتطلب من في بعض المرات أن يضفر لها خصلات شعرها وأنها تحبه أن يضفر لها شعرها أكثر من والدتها ويداعبها ويقول لها إن رائحة البحر في ثنايا شعرها.

*****

يوم الاثنين مقدس عند الجد للذهاب للبحر لأنه كان يذهب للصيد هو ورفاقه دائما في هذا اليوم قديما فطلب الجد من أبنائه أن يتركوه هذا اليوم فقط وألحت إيزيس هي الأخرى على والدها وطلبت منه أن يسمح لها بالذهاب مع جدها فقد اشتاقت للبحر كثيرا.

ووافق والد إيزيس فأسرعت إلى جدها لتساعده في ارتداء ملابسه وذهبا، وفي هذا اليوم جاءت إحدى الجارات للجد حيث إنها كانت تسير على الشاطئ ورأته من بعيد فأقبلت عليهم لأنها كانت تكن للجد معزة كبيرة فقابلها الجد بابتسامة قائلا لها: كيف حالك يا طيبة القلب؟

فأجابت عليه بصوت حزين مشحون بالبكاء: الحمد لله يا جد، يا ليتنا بقينا صغارا نجلس أمامك وتحكي لنا القصص التي حفرت في أذهاننا لليوم. .

وبعد حوار طويل بينه وبين الجد سألها الجد عن أسماء أولادها، فسقطت الدموع منها، دموع دفينة تسلل ببطء وبثقل من جفونها فانتصرت الدموع على قوتها في عدم إظهارها أمام الجد وإيزيس.

وقالت إن الله سيرزقها برجلٍ صالح في جنته، وإن رحمها سينبت به أطفال لا حصر لهم هناك يشبهون الملائكة، فالعالم مؤذٍ يا جد ولم يرد أن يتركنا أبرياء وأنقياء كما ولدنا ويهم بكل ما به من قسوة ويلقيها على كل حامد وشاكر إلى الله ليخرجه من صلابته وصبره. .

*****

امرأة اجتمعت بها كل صفات الجمال التي خلقت لكنها في عالمٍ حقير يسلب منها حقها في العيش سعيدة من دون زواج ورجل اعتبارا منه بأن الزواج قانون وليس رزق وقدر وأنه من لم تحظَ به لا حق لها بالحياة.
فقال لها الجد مبتدأ كلامه معها: يا مريم. .
فقالت له: أنا يا جد؟
فابتسم قائلا لها: نعم أنتِ مريم! إن الله لم يتركنا ولن يتركنا، وأعين الله لا تنام فهي سهر على استجابة دعائنا، وكما قلتِ إن الله سيرزقكٍ بما تمناه قلبك لا عليكِ إلا بصبر مريم وتحمل إيزيس، وأنه قد تكون محنتك عوضا عن خير قادم، تمالكي وابتسمي فأنتِ أجمل أميرات ونساء العالم. .
كم أنثى تعجلت بالزواج و أصبح الزواج نقمة لها؟! وكم أمٍ تمنت لو أنها لم تنجب أولادا بهذا الفساد الذي نراه اليوم؟!
وكانت إيزيس لديها واحد وعشرون عاما في هذا التوقيت وكانت واعية تمام لكلام الجد فأنصتت إليه باهتمامٍ شديد، وعاد الجد في هذا اليوم مريضا وأصابته رعشة قاسية في جسده كله فاحتضنته إيزيس بخوف شديد عليه ونام ووعد أبناءه أنه سيسمع كلامهم بعد اليوم ولكن الأمر لم يبدُ مجرد مرض في هذا اليوم فجلس أبناؤه جميعهم حوله ولكن الجد ذهب ما بين الواقع والخيال يسمعهم ويتألم لخروج الروح منه وأخذ عمر ابنه الكبير ممسكا يديه داعيا الرب أن يشفيه لهم فهو سند كبير لعائلتهم وإنهم يحتمون في أنفاسه بينهم.

*****

وقبل قدوم الصباح كان قد حل أجل الجد سعيد وذهبت أنفاسه إلى الله، الجد العظيم، رفيق البحر وصاحب أجمل بسمة، فقد غاب عن بيتهم الوجه البشوش وتيتم أهل البيت وحزن الصغار قبل الكبار على فراقه وأظلمت جدران البيت حدادا على غيابه.

*****

ذهب سريعا قبل أن تسقيه إيزيس كوب اللبن الذي اعتاد عليه من يديها، فبكت عليه بكاء كاد أن يشبه بكاء يعقوب على يوسف ابنه، وغابت البسمة عن الجميع برحيله.

*****

البقاء ماهو إلا شعار لكن الرحيل هو القانون الأبدي علينا جميعا، فجميعنا لا يدرك أن الموت حقيقة إلا لحظة الفراق. . وعاش أهل البيت بذكرياتهم المرسومة في كل جدار في المنزل.

*****

ولم يشبه حزن أحد مثل حزن إيزيس على جدها، فالجد سعيد بنى لإيزيس عالما مختلفا وبعيدا كل البعد عن عالمنا، عالما مثاليا كان هو الأشخاص والزمان والمكان به فتشبثت إيزيس بهذا العالم وامتلكت به كل شيء ولم تتمنَّ طيلة حياتها سوى دوام هذا العالم لها.

*****

الجد هو العالم الذي تتمناه كل أنثى بداخلنا والألف يعيشون لآخر لحظة على أمل اللقاء بعالمهم المثالي هذا.

*****

وكانت إيزيس محظوظة كثيرا بهذا العالم فقد كان يعلمها الجد دائما كيف يجب أن تكون حواء هذا العالم، وكيف تقوى على الوجع وتتغلب على الهزيمة، زرع بها أنها أنثى وأن الأناث هن الوجود وهن الحياة، وترك لها الأمل في الله سلاحا لها.

*****

وعادت إيزيس للدراسة في وقت سريعا للغايه أدهش الجميع لأنها كانت الأشد حزنا بينهم ولكنها أرادت ألا تحزن حبيبها وجدها المتوفى لأنه أرادها قوية فأرادت أن تكون له قوية في أول اختبار لها بدونه.

*****

وفي طريقها للجامعة وجدت بنتا في عمرها تجلس في حديقة واسعة ممتلئة بالورود الحمراء والخضرة ولكنها ترتدي ثوبا أسود يكاد من ضيقه عليها أن يخنقها، تجلس القرفصاء وتضع رأسها بين أرجلها وتبكي ومن شدة البكاء لم ترفع أعينها للحظة وترى هذه الورود الجميلة المتفتحة أوراقها بالأمل لها. . . فجلست إيزيس بجانبها وسألتها عن سبب بكائها فقالت لها البنت إن حبيبها تركها ورحل وإنها كانت تحبه كثيرا فقد رأت به عوضا عن أشياء كثيرة لم تتحقق لها وعن ماضٍ أليم ولكنه خيب أملها وذهب، وها هي تجلس حزينة عليه ومستسلمة تماما، فقامت إيزيس على أرجلها وأمسكت برأسها حتى أخرجتها من القرفصاء هذه وسندتها حتى وقفت هي الأخرى على أرجلها وبصوتٍ عالٍ صرخت قائلة: كوني مريم. . . حواء ليست إلا مريم!

*****

وبينما أمل تجلس كعادتها بجانب مريم أختها من غيبوبتها تنتظرها أن تعود مرة أخرى من غيبوبتها هذه للحياة، كانت تحكي لها ككل يوم ما مرت به إذا فجأة فتحت مريم أعينها وقالت لأختها بصوت ضعيف جدا: حواء ليست إلا مريم يا أمل،،

*****

تواصل معنا :

01011464037

E-mail -:Sonon. Pub@Gmail .com

جميع حقوق النشر محفوظه لدار سنون للنشر و التوزيع
إن أي تصوير أو اعادة طباعه أو نشر بشكل ورقي أو الكتروني
أو ترجمته أو تسجيله صوتيا بدون إذن كتابي مسبق من الدار
يعرض صاحبه للمسائله القانونيه